## من تراب الطريق! (٢٩٣) تحالف الفقر والجهالة (*)

وسط زحام أخبار الأغنياء الذين جمحوا وجنحوا واستشرى جموحهم وجنوحهم فى البلاد فى كل باب، قرأت خبرا يقطع نياط القلوب على بؤس الفقر ومزالق الجهل .. أسرة بسيطة أكلها الفقر، ويبدو أن الرجال غابوا عن جيلين بالأسرة لأسباب لم يغطها الخبر، فاضطرت الأم وابنتها للعمل بالخدمة .. المشكلة أن الابنة لديها طفلتان .. ملَك بنت عام وبُوسى بنت عامين، فماذا تفعل الأم والجدة بهما حين يحين موعد خدمتهما فى البيوت كما فهمت .. إن أم الطفلتين لا تستطيع أخذهما معها إلى مقر عملها، وهكذا الجدة، فما الحل ؟!

المفارقة أن أسباب " الجرى " على إعاشة الطفلتين، هى هى أسباب التصرف الأحمق الجاهل الذى لجأت إليه الجدة .. إنها تخشى على الطفلتين إذا تركتهما طليقتين – من مخاطر الكهرباء أو غيرها من مصادر النيران أو الطاقة، فلم يهدها عقلها العقيم أو قل جهلها المتعانق مع بؤس فقرها، إلاّ إلى ربط الطفلتين بحبل إلى السرير لحمايتهما من الحركة .. لم تتصور فزع الطفلتين بعد أن تغادرهما، ولا تصورت وخز الحبل فى معصميهما أو كاحليهما - لست أدرى، ولا توقعت بجهلها وضغط بؤسها أن الطفلتين ستروعان وتملآن الدنيا صراخاً وبكاءً .. لم تدرك الجدة أن الوضع الذى كبلتهما به أشد وقعا وإفزاعا من المخاطر التى أرادت – على قدر عقلها ! – حمايتهما منها .. من لطف المقادير أن صراخ الطفلتين قد

---

(*) المال ٢٠٠٩/٧/١٣

استلفت الجيران، فسارعوا بإبلاغ الشرطة التى لم تجد أمامها سوى كسر باب الشقة لإنقاذ الطفلتين قبل أن تعود الجدة لتفاجأ بما لم تتوقعه، فتبرر تصرفها الأحمق فى بلاهة بأنها أرادت حمايتهما من المخاطر بتقييدهما إلى السرير .. دون أن تدرك أن الطفلتين كانتا يمكن أن تموتا من الفزع والبكاء !!

هذا الخبر المأساوى، لم يأخذ من الصحف التى نشرته أكثر من مربع أو مستطيل لا تزيد مساحته على ٢٠ سم٢، بينما ذات هذه الصحف أفردت وتفرد الصفحات الطوال لإشباع أشواق النميمة بتغطيات ما أنزل الله بها من سلطان عن جموحات ونزوات وجنوحات وجرائم الأغنياء .. لوازم الشغل وتلبية الإثارة والتقاط الصور فى جميع الأوضاع، ورصد الدموع والتأوهات أو الحركات والسكنات والإيماءات، وأخبار وتعاطف وأحزان وصدمات الأهل والأصدقاء والأحباب، والحلول التى فجأة طفقت تشغل المجتمع كله ويفتى فيها العارف والجاهل، كيف يمكن الخروج من المأزق ومشاهده التى شغلت مصر على مدى شهور فى الصحف والمجلات والفضائيات والأرضيات !!

لم يلفت تغطيات الإثارة التى تلاحق أفراح أو تأوهات الأثرياء وتحصى ضحكاتهم وهمساتهم ولمساتهم، لم يلفتها ما فى خبر الجدة التعسة التى دفعها بؤس الفقر وظلام الجهل إلى هذا الحل الضرير بتكبيل حفيدتيها اللتين لم تفارقا بعد سن الرضاع بهذه الصورة التى لم تدرك ما فيها من نبو عن الرحمة التى كانت هى هى دافعها إلى ما تصورت بجهلها أنه حماية لهما .. هذا المشهد الجهول البائس يستحضر مشهد القطة التى تأكل صغارها لحمايتهم من الخطر ! .. لو التفتت إليه الصحافة المقروءة والمسموعة والمرئية، لوجدت فيه مادة خصبة مليئة بتضاعيف تحرك الماء الآسن وتوقظ الفكر والضمير الراكد وتفجر قضايا بالغة الخطر والأهمية تاه المجتمع حكاما ومحكومين عنها، ولم يعد يلتفت أو يبالى بما تحمله من نذر شؤم بتعرض المجتمع كله للانهيار ما لم يتداركه الله بلطفه ورحمته!

قبل أن نملأ الدنيا هتافاً واهتماماً وتفاصحاً بعمل المرأة وتمثيلها فى البرلمان إلى آخر جدول وأجندة اهتماماتنا التى نتجمل بإثارتها والتسابق إلى إظهار التقدمية فيها، علينا أن نفكر وندبر البدائل لعمل المرأة فى رعاية أطفالها فترات غيابها للعمل أو التمثيل النيابى أو الشعبى أو المحلى أو الاجتماعى، فإذا كانت هذه المستويات لديها الثقافة والفرصة والإمكانيات لإحضار مربيات أو شغالات أو الدفع بالأطفال إلى دور حضانة ورعاية، فإن الأغلبية الغالبة لنساء مصر من نوعية وفقر وجهل وانعدام ثقافة وقلة حيلة وإمكانية هذه الجدة التى ربطت حفيدتيها إلى رجل السرير فترة غيابها فى العمل الذى لم تقدم عليه من باب العياقة، وإنما تحت ضغط الفقر والحاجة !!

إن الهوة بين الأغنياء والفقراء فى بر مصر، قد بلغت حداً هائلا من الاتساع.. لا يمكن التغاضى عنه، ولا تصور علاجه بالمسكنات والمهدئات.. مثلما لا يمكن تصور استمرار الأحوال على ماهى عليه وعلى المتضرر أن يلجأ إلى حيث ألقت.. ظنى أن مشهد الجدة والطفلتين ابنتى عام وعامين، يوقظ الموتى ويبصّر العميان بما لحق بقاع المجتمع من فقر وجهالة وبؤس وتعاسة وشقاء.. فهل استيقظنا مما نحن فيه من سبات ؟!!